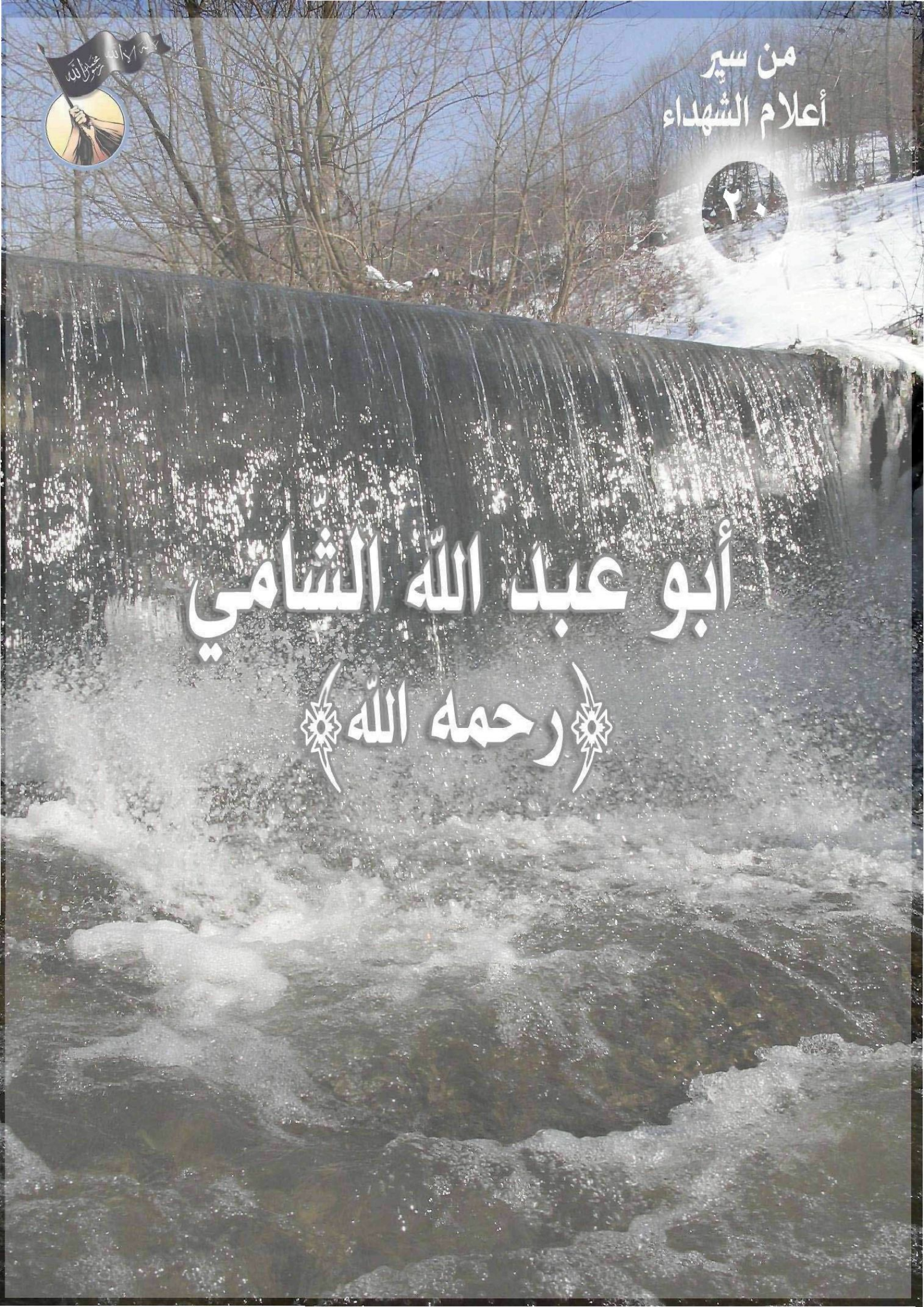
من سير
أعلام الشهداء
٢٠
أبو عبد الله الشامي
رحمه الله

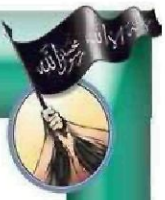

أبو عبد الله الشّامي

عَلَمٌ من أعلام الفلّوجة، ورمزٌ من رموزها، وأَسَدٌ خبيرٌ من أُسْدهَا، طيِّبُ القلب، سليم الصَّدْر، نَقيُّ السَّريرة، تقيٌّ زاهدٌ ورعٌ، يَأْلَفُ ويُؤلَف، ومهما وصفتُ أخي وحبيبي فلن أستطيعَ أنْ أُحيط بجميل خُلُقه ومحاسن أوصافه إلا كما يُوصَف المغبون.

ولأخي وصديق درْبي وفلذة فؤادي، معَ الجهاد قصّة ونشيداً، مُوجَزُهَا أنّ الشّهيد - نحسبه كذلك – كان سليمَ الصَّدر إلى حدٍّ بعيد، وكانَ لا يعرف الكذبَ ولا يظنّ أنّ أحداً يحترفه، فبعدما عرفَ الجهادَ فريضةً لازمةً سافرَ إلى الجزيرة (السّعودية) - دولة الإسلام كما أقنعوه - وهناكَ عَرَفَ كُفْر آل سعود على حقيقته وكَرِهَهُم من أعماق أعماق نفسه، وخاصّة بعدما التحقَ والتقى بـ(إخوان منْ أطاعَ الله)، وعادَ إلى بلده سوريا مدينة حلب، هناك سمعَ أنّ الشيخ أبا عبد الله أسامة بن لادن موجودٌ في السّودان وبالفعل سافرَ إلى هناكَ ولكنّ أَمَلَهُ خاب، لأنَّ الشيخ كان لتَوِّه قد طُردَ بعدما سُرق من الدجّالين (الترابي والبشير)، ثم سافرَ إلى اليمن بعدما باعَ بيتَهُ ومَحلَّهُ ورَحَلَ بأهله بعدما أخبروهُ أنّه من هناك يُسَهّلُ عليه الهجرة إلى أفغانستان، وبعد شهور من الضّيق والضَّنَك وقلّة الحيلة والمال عادَ والحزْن يملأُ قلبَه، ثم سافرَ أخيراً إلى أفغانستان، وهناك بدأَ أبو عبد الله أوّل خطوات الجهاد، قاتلَ في صفوف الطّالبان ضدّ التّحالف الشمالي، ثم حُبِّبَ إليه قتالُ الرّافضة، فَشَكَّلَ هو ومجموعة من الإخوة العرب والعجم سريّة لقتال الرّافضة الإيرانيّين وكان أميْرُهُم صلاح الدِّيْن الإيرانيّ فكانوا يُغيروا على معسكرات الرّافضة فيقتلُوْن ويَأْسرون ثم ينسحبوا آمنين بحول الله وقوّته، ثم قَوَت دولة الإسلام فأسرع إلى كبح جماع الرافضة في " باميان " بعدما غَدَرُوا بالسُّنّة هناك ونَقَضُوا كلّ العهود والمواثيق واتّصلوا بالغرب وعلى رأسهم اليابان وكوريا وتايلاند وغيرهم ليبيعُوا لهم " بوذا " وليُبَرْهنُوا لهم على محبَّتهم وولائهم قتلوا السُّنّة ومَثَّلوا بهم فوقعوا في شرِّ أعمالهم وأتاهم الموت من حيثُ لم يَحْتَسبُوا، وكان من السّابقين إلى ذلك شهيدنا الحبيب، وفي أفغانستَان تَعَلَّمَ أُصُوْل علْم المتفجرات وعلْم التّشريك، ثمَّ تتابعت الأحداثُ كما هو

مَعْلُوم، وانهارتْ دولة الطّالبان تحت مكر وكيد الباكستان وعملائهم وانسحبنَا إلى الجبال، بعضُنا إلى جبال تورا بورا وعلى رأسهم الشّيخان، وبعضهم إلى جبال كرديز وكنتُ والشّهيد منهم، وهناك برزَ دورٌ آخر للشّهيد البطل فكان خادمُ الإخوة الذي لا يَملّ وسائقهم الذي لا يَكلّ، هذا وأهلُهُ وأولادُهُ تحت ضنك شديد فَرَّجَهُ الله بعد ذهابهم إلى باكستان، وبقى الشّهيد مع إخوانه، خادمُهُم إذا نَزَلوا وفَارسُهُم إذا رَكبُوا، وأخيراً انطوت صفحة أفغانستان في حياة الشَّهيد وبدأت صفحة العراق، جاء إليها قبل سقوط بغداد بعدّة أشهر، وفي بغداد اجتمعَ نفرٌ يسيرٌ كان العبد الفقير خادمهُم، واتّفقنا على جمع السِّلاح إذا سقطَ النّظام كما وبعد السّؤال اتّفقنا على عدم مُسَاعدة هذا الطّاغية بطلقة واحدة، وسقطَ الطّاغية وبدأَ الفتح الإسلامي الثّاني للعراق، فَتْح الصّحابة ثمّ فَتْح المجاهدين، فبدأت والشّهيد وسابقاً شهيدنا أبو عمر وغيرهم نضع العبوات ونضع أوّل لمسات علم التّفخيخ والتّشريك بالعراق، وكان أبو عبد الله الشّامي من أساتذة هذا الفنّ ففتحَ الله عليه خيراً كثيراً، وباركَ في جهوده ومسعَاه، ولما جاءَ القائدُ المباركُ أبو مصعب الزّرقاويّ " رحمه الله " لَحق ولحقنا برَكْبه فكانت صفحةً جديدةً وقصّةً أخرى وليدة من حياة أبي عبد الله سَخَّرَ نفسهُ وأهلَهُ وبيتَهُ وحياتهُ لخدمة المجاهدين والاستشهاديّين، ولأنّ البيوتَ كانت موصدةٌ أمامنا.. فتحَ بيتَهُ، وفي بيته بدأت أوّل فصول العمليات الاستشهادية وعلى يديه سارت أوائل فصول قصّة الجهاد والاستشهاد في العراق.

وفي هذه القصة فصلٌ جميل لطيف أحبُّ أن أُوجزْه، وهو أنه تم رصد هدف مهم في حيّ الجامعة ببغداد، جنرال أمريكي كبير من الـ(CIA) يأتي لبيت من البيوت يمتلأ ردّة وكُفْراً ونفاقاً، وعند لحظة التّنفيذ تردّدَ الأخ الإستشهادي، فما كان من أبي عبد الله إلا أن ركبَ السيارة وقال أذهبُ مكانَه، والله لا يضيعُ الهدف ولا ترجع العروسة بلا عريس " يعني السيارة" ، وحاولتُ وحاولتُ لكنّه أصرّ وقال لي: وصيتك أهلي وأولادي وانطلقَ الرّجلُ باتّجاه هدفه إلا أنّ الهدفَ كان قد خرج لتَوّه وأبقى اللهُ لنا أبا عبد الله.

وبعدما فتحَ الله علينا الفلوجة وأَعَزَّ الدِّين وأهله وأَذَلَّ الشِّرك وحزبه قدم أبو عبد الله وواصل الليل والنّهار جمعاً للشَّمل وتقوية للصَّف ورأباً للصَّدع، تارة باللِّين وأخرى بالشّدة، النُّصح شعارُهُ والمحبة سبيله، ولما اكتملَ البنيانُ واستوى الرُّكبان، جَهَّزَ حقيبةً صغيرةً بعدّة التفخيخ وأخذ يطوفُ على كتائب المجاهدِيْن من دورة إلى أخرى يُرْسي دعائمَ هذا العلم، فلا ترى أبا عبد الله إلا بين أحضان عروس، عفواً سيارة يجهزها، أو إخوة يدربهم، دَويُّ المتفجرات عَزْفُهُ وغبار البارود طِيْبُهُ وتجارب المتفجرات لَهْوُهُ وأنيسه، نسى أهله وولده وعشق فنَّه وإخوته، يمُّر عليه الليل ثقيلاً حتى إذا لاحَ الفجرُ بضياءه ترى أبا عبد الله فوق رؤوس إخوانه والبسمة تعلوه، هيّا كفاية نوم، نمنا كثيراً كثيراً.

وهو في كل ذلك نعْمَ المُعيْن، وخيرُ صّديق، كان لي إن نمْتُ أو تكاسلتُ أخذ على يديَّ، وإن زُغْت أو تهاونت أقامني فلم يكن مساعدي بل أستاذي وصاحبي. ولما أحسَّ أبو عبد الله بقُرْب الأجل ودنوّ الأمل، فاتحني أنه يريد أن يُزوّج ابنته من رجل صالح ويطمئن عليها في حياته فاخترتْ له القائدُ الهمامُ والبطلُ المغوار سيّد الجولان، أبا ناصر الليبيّ وحضرَ الشّيخ أبو مصعب الزرقاوي " رحمه الله " وكيلاً عن العريس وعقدتُ لأبي ناصر وأصدقَ الشّيخ ابنته ألف دولار، بالطّبع رفضَ أبو عبد الله إلا أنه ضُغطَ عليه، ولم يدخلْ أبو ناصر بالعروْس لأنّها صغيرةً بعضَ الشّيء.

ثم جاءت الفلوجة الثّانية، وأدركَ الجميع أَنَّ النهاية قد اقتربت وأن رحا العمر أوشكت على التّوقف، وأن طاحونة الاستشهاد لابد أن تمرّ على ما تَبَقّى من الأُسُوْد في الفلوجة، واشتعلت الحرب، وصَبَّ الحقدُ الصليبيّ نيرانَ الحقد والحسد والبغضاء وتَبَسَّمَت السَّماء للشّهداء، وبدأَ الإخوةُ يرحلونَ واحداً واحداً، كلٌ يُودِّعُ رغماً عن الجميع، واستمرّت مواكبُ الاستشهاد تتدفق كالسَّيل الجارف، وبينما الأمور كذلك كان أبو عبد الله واقفاً على حافّة الطريْق من جهة مطعم الحجّي حسين وزوج ابنته " أبو ناصر اللّيبيّ " على الجهة الأخرى، يناديْه عمّي سأعبر، ويردّ أبو عبد الله لا يا أبا ناصر الدبّابة تراكم، وعبرَ أبو ناصر قَدَمُهُ في اتّجاه عمّه، وفاضتْ روحُهُ أمام عينه وهو يقولُ اللهُ أكبر اللهُ أكبر.

وكنتُ على بعد مائة متر من الموقع، ومن بعيْد رأيتُ أبا عبد الله قادماً علَّي يحملُ قاذفته ويخطّ برجله الأرض.

وفي اليوم الثاني كَثَّفَ العدوُّ من رمايته ورَكَّزَها فَأُصيب غالب إن لم يكن كل من في الخط الأول، ولم يكن هناك طبيب أو مُمَرِّضٌ وبَيْنَ يَدَيَّ نَزَفَ أَخٌ حتى الموت ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

وعلى عَجَل وقلّة علْم وحيلة تمَّ تجهيز مكان خلفيّ للجرحى، وطلبَ الإخوة من يقوم على رعايتهم، فطلب أبو عبد الله أن يذهبَ عندهم فقلتُ له ابقَ معي لكي تساعدني فليس معي أحد يفهمُ في التّشريك، قال: دعني أذهب، قلت له توكّل على الله ولكن تأتي عند الصّباح، قال إن شاء الله.

وذهبَ أمام عيني وأنا أرمقُهُ عند مغيبَ الشّمس وغابتْ الشّمس، ولم تَعُد إلى يومنا هذا يا عزيزي، رحلَ أبو عبد الله مع أبي طارق الليبيّ تحتَ جدار بعد قصف مدفعي عنيف، كما أودّ أن أسكبَ أيضاً دمعةً على أبي ربيْع الليبيّ حيث ذهبَ مع أبي عبد الله مع الشّمس وعندما ذهبَ أبو ربيع وكان جريحاً في ظهره جاءَ يُقبّلني بحرارة ويحضنني ويُقبّل رأسي فقلت: عزيزي هي مائة متر بُعْد بيتكَ عن بيتنا، قال: الله اعلمُ أنلتقي أم لا، ولم نلتقي، ولعلّنا نلتقي في مكان آخر في جنّات عدن برحمة منْه وفَضْل ولعلّي أعودَ بشيء من التفصيل عن أبي ربيْع وأبي طارق في وقت آخر.

بقيَ يا أخي أنّي نسيتُ صفحةً مهمّةً من حياة الشّهيد، فإنَّه وفي يوم من أيام الفلّوجة الطّاحنة قصف الأمريكان بعُنْف حي الصناعة، فَأُصيْب على إثر ذلك القصف أحد الإخوة العرب في رأسه وتَمَّ نقله إلى مستشفى الفلوجة لكن المستشفى قالت إنها لا حيلة لها به، ويجب نقله إلى مستشفى الحملة العصبية ببغداد - وهو مستشفى يسيطر عليه الرَّافضة ويقع بالقُرْب من وزارة الداخلية -، فَتَمَّ نقل الأخ وتبرّع بالذهاب معه أحد أفاضل الإخوة الأنصار وأكثرهم حباً وخدمة للمجاهدين وهو الأخ إبراهيم العيساوي (كان ضابط شرطة تابَ الله عليه وبقي مع الأخوة) وفي المستشفى وتحت تأثير البنج تكلّم الأخ فبانَ من لهجته أنّه من الجزيرة وعلى الفور طار الخبر في المستشفى.

وفي تلك الأثناء قال لي الأخ الشّهيد: أنّه يريد أن يذهب ليطمئنَّ عليه، فقلتُ له يا أخي: المستشفى خَطر وبغدادُ وَضعُها خَطر، قال: لا بدّ من الاطمئنان على الأخ وإذا ما كانَ يحتاجُ لشيء، المهمّ أنّه أصرّ على الذّهاب.

وذهبَ إلى المستشفى حاملاً معه أكياس الطّعام والشّراب يحثُّ الخطى لرؤية أخيه، لكنه وجدَ الرّوافض في انتظاره، وعلى وجه السُّرعة جاءت الشُّرطة، والمنتشرين أصلاً في جوانب المستشفى كميناً لمن يأتي من الأخوة.

وتم نقله إلى مسلخة وزارة الدّاخلية وهناك صبّوا عليه العذاب صبّاً – كهرباء، جَلْد، ضَرْب، ماءٌ قَذر، حبسُ البول– كل أصناف العذاب وما تركوهُ إلا جثّةً هامدةً لا حول ولا قوّة له إلا بالله، ثم جاء الأمريكان لينقذوه من أيديهم وليكتشف الرّجل الميت أصلاً أنه وقعّ فريسة لرجل آخر، وعلى الفور تمّ نقله إلى دولة مجاورة وبطائرة حربيّة وهناك خضعَ لاستجواب دقيق وطويل، فلما لم يجدوا عنده شيئاً، عرضوا عليه مجموعة من الصّور لعلّهُ يعرفُ أَحَدَهُم وحينئذ صُعقَ الرَّجل وظَنَّ أَنَّه الهلاك حيث كانت صورته بالصَّف الأول، وظن في أوّل الأمر أن عملية العرض ما هي إلا خدعة لكنهم والحمد لله لم يعرفوه، وكان عنده أوراق هي كأوراق الخريف سُرْعان ما تهوي إذا لامستها أيادي هَشَّة وكذلك كانت هويَّات الشَّهيد، وفي السّاعة العاشرة صباحاً وبعد عشرة أيام من الاعتقال طُرقَ بابي فخرجت وإذا بحبيبي وصديقي وعيني أبو عبد الله واقف أمام عيني يبتسم وإن كان الإعياء واضحاً عليه، فلم أُكَلِّمه كلمة واحدة حتى خررت لله ساجداً على النّعمة والتي ما ظنّ أحدٌ قط أن تكون، حيث أعلنَ العدوّ وقت اعتقاله أنه أعتقل أحد مساعدي الزرقاوي، ولكنّ الله كتب له النَجَّاة. ثم بعد السَّلام والكلام قال لي: عذراً، ممكن أذهب أرى أهلي فزادتْ محبّة الرّجل في قلبي إذ أنّه أرادَ أن يُطَمْئنَ إخوانه قبل زوجته وأولاده.

و بعد فترة قال لي أبو عبد الله: تعرف يا أخي والله هممتُ أنْ أدعوا عليكَ وأنا بالسِّجن، فجزعتُ من قوله ثمّ قلتُ: و لم؟.

قال: لأنَّك منعتني مراراً من تنفيذ عمليّة استشهاديّة، قلت: والله يا أخي مـــا أردتُ إلاّ الخير والصَّالح العام.

ثم أردفَ قائلاً: لا تمنعْ أحداً من خير عندَ الله، ثم الله يُخْلف علينا فالدِّيْن لا يتوقفُ على شَخْص كائناً ما كان ذلك الشَّخْص.

لكنّي وللأسف ما تَعَلَّمْت الدّرس ومنعتُ أحد الأخوة المقاتلين من عمليّة استشـــهاديّة، وهو الآن وديعُ السّجن أسألُ الله أن يعفوَ عنّي بفضله ومَنِّه وأنا تائبٌ إن شاء الله.

وكتبه

أبو اسماعيل المهاجر